

اسم المادة الدراسية : الأءب الاءءلسي

اسم المادة باللةة الاءكلىزىة : Andalusia literature

(المءاضرة الءالءة عشرة)

عنوان المءاضرة : وصف الطبىعة .

الءءرىسى ولقبه العلمى : أ.ء. مءء عوىء مءء الساءر

المرةلة الءراسىة : الءالءة .

محاضرة : ١٣

. ابن خفاجة :

هو ابراهيم بن ابي الفتح بن خفاجة وكنيته ابو اسحاق ولد سنة ٤٥١ هـ في بلدة (شقر) القريبة من بلنسية في شرق الاندلس وهي بلدة جميلة يحيط بها نهر (شقر) من أكثر جهاتها ويعدها ياقوت انزه بلا دالله وأكثرها ماء وروضاً وشجراً ومن هنا كان لبيئته اثر بارز في جنوح شعره الى وصف الطبيعة .

عاش ابن خفاجة ابان عهد الطوائف ثم عهد المرابطين ولم يكن ليرغب في حياة التنقل والترحل لذلك قل اتصاله بأمرء عصره ولم يكن للمديح حيز كبير في شعرة فالشاعر على ما يبدو ينظم الشعر هواية ولا يبغى من ورائه التكسب بعد ان حباه الله من اليسر ما اغناه من

التزييف ومثل هذا الترفع وإيثار البعد عن الشهرة وأضواءها قلما نجده عند احد من الشعراء الذين عاصروه او تقدموه وعلى ذلك لا يكاد شعر ابن خفاجة ينم عن حياته ويكشف عن دقائقها بتفصيل وهكذا يغاير ما عهدناه لدى كثير من شعراء الاندلس واغلب الظن ان تعليل ذلك يكمن في شخصية ابن خفاجة نفسه فهو لم يتزوج قط كان شديد الاحساس يدنو الاجل ولعل هذا ما دفعه في بداية حياته الى المجون والعب من رحيق الملذات على حين جنح في شيخوخته الى الزهد والتوبة حتى انه في مرحلته من مراحل حياته عزف عن قرص الشعر وهجره هجراً قاطعاً على ان الاحداث التي كان يشهدها عصره وكانت من القوة بحيث اخذت تعصف بعزلته وبسليبيته تجاه الحياة العامة فقد كان لاجتياح الاسبان لمناطق شرق الاندلس ما ادى بهذا الشاعر ان ينجو بنفسه ليحط الرحال في عدوة المغرب وكان جديراً بهذا الحدث في حياة الاندلس ان يهز كيان الشاعر فبفضل المرابطين ولاسيما قائدهم ابراهيم ابن يوسف بن تاشفين استطاع هذا الشاعر ان يرجع الى مدينته بعد تحريرها فرجع ابن خفاجة الى نظم الشعر ولم يلبث ان طلع بقصيدة يمدح فيها ابراهيم وتعد هذه القصيدة بمثابة نقطة تحول في شخصية وفي شعرة على حد سواء فهي مؤشر الى انتهاء مرحلة مديدة من سلبية الشاعر تجاه مجتمعه وعصره وانتقاله من الفردية الى الجماعية فعاود نظم الشعر وقال عدداً من المدائح ولاسيما مدحته لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وفيها يشيد بكرمه وشجاعته ورفعته نسبه قائلاً :

سجعت وقد غنى الحمام فرجها

وماكنت لولا أن تغنى لأشجعا

و أندب عهداً بالمشقر سالفاً

وظل غام للصبا قد تشعنا

و لم أدر ما أبكي أرسم شبيبة

عفا أم مصيفاً من سليمى ومربعا؟

وكنت جليد القلب والشمل جامع

فما انفض حتى خارفا رفض أدمعا

كأني لم أذهب مع اللهو ليلة

ولم أتعاطى البابلي المشعشعا

ولم أتخايل بين ظل لسرحة

وسجع لغريد وماء بأجرها

وأبلق خوار العنان مطهم

طويل الشوى والشأو أقودأتلعا

كأن على عطفه من خلع السرى

قميص ظلام بالصباح مرقعا

ولما انتحى ذكر الأمير أستخفه

فخفض من لحن الصهيل ورفعا

حينياً الى الملك الأغر مردداً

وشجوى على المسرى القصير مرحبا

لقد غلب الشوق والحنين على نفس الشاعر في هذه الابيات التي نظمها في اعقاب انتصار ابراهيم بن يوسف على اعداء من الاسبان لقد هاج الحمام في نفسه الشجو فراح يستعيد ذكرياته بلوعة باكيا ايامه الخوالي ايام الصبا والشباب اذ ليس امر على القلب من توديع الشباب الذي يولي عن المرء الى الابد وعلى غرار هذا الحزن يندب الشاعر اي السمات الفنية فيشعر ابن خفاجة:

اخذت تتقاطا امام مخيلته ومن المؤلف في الشعر الاندلسي ان تغدوا الذكريات السعيدة مسترخية على وسادة الطبيعة وهذه القصيدة بالرغم انها في المديح فانّ نحو من نصف ابياتها الستين يدور في فلك الوصف من حيث وصف الطبيعة ووصف الجواد ومن هذا الغرض الشعري الذي يصور منزع الحنين والشوق عريق اصيل في شعر العرب وقد عرف به كثير من الشعراء لكثرة ترحالهم عن الديار وبخاصة الشعراء البداية ومن هنا أثر ابن خفاجة ان يرسم لوحته بريشه معهودة ومداده قديم ومناجاة الحمام وبكاء الرسم الداري امور مألوفة لا تبلى جدتها فهي تعبر عن نوازع عاطفية متأصلة في نفس الانسان ويمكن لنا ان نتبين ذلك من خلال ما اغترب به من الشعراء القدماء حينما يقول:

(أين لجنب أن يلائم مضجعا) مأخوذ عن ابي ذؤيب الهذلي وذكر المصطاف والمتربح مأخوذ

عن الصمة القشيري فابن خفاجة هنا يبدو متأثراً او شاعراً تقليدياً أو شاعراً متبدياً فهو انما كان في مدائحه يسلك ما سلكه الشعراء القدامى حرصاً منه على البقاء في فلك القديم.

شعر الطبيعة عند ابن خفاجة:

وهناك جانب اخر وهو أكثر أهمية في شعر ابن خفاجة وهو وصف الطبيعة فقد عرف به دون كثير من شعراء الاندلس

يارب مائسة المعاطف تزدهي

من كل غصن خافق بوشاح

نفضت ذوائبها الرياح عشية

فتملكتها هزة الـمرتاح

حط الربيع قناعها عن مفرق

شمط كما تزيد الكأس بالراح

لفاء حاك لها الغمام ملاءة

لبست بها حسناً قميص صباح

نضج الندى نوارها فكانما

مسحت معاطفها يمين سماح

ولوى الخليج هناك صفحة معرض

لثمت سوافها ثغور أقـاح

فموضوع هذه الابيات هو الوصف اي في وصف شجرة والشاعر هنا لم يذكر لفظ (الشجرة) او (الدوحة) خلال الابيات لأنه آثر أن يصفها وصفاً غير مباشر أنه يتحدث عنها كمن يتحدث عن امرأة تتسم بكثير من سمات الانوثة فهي مزدهية بحسنها وتتمايل على جانبيها تيهاً بجمالها وقد ازدانت بأنضر الازهار وعندما تهب الرياح عليها وتهز أعطافها تبدو أيضاً كامرأة بأحسن حال وهذه الصفة مستحبة في الانثى عند العرب من الجاهلية وحافظ عليها الذوق الاندلسي ولعل ابرز ما يلفت الانتباه في هذه الابيات هو المزج بين الشجرة والمرأة بحيث تتحدان فلا تميز

الواحدة عن الاخرى وقد جنح الشاعر في سبيل بلوغ هذا الايهام الجميل الى اكساب الشجرة العديد من صفات المرأة خالغاً عليها أبرز الملامح الانسانية ويجعلها مزهوة بحسنها مفعمة بالعافية كما انها ذات شعر مسترسل طويل الغدائر تتلفع بعباءة وتلتف بقميص وقد حاول الشاعر جاداً في هذا التشخيص على ايجاد الصفات المشتركة لتوافر حالتين على عناصر الجمال.

ونلاحظ ايضاً طغيان الخيال على النص حين أثر الشاعر معالجة وصف الشجرة بطريق غير مباشر مستعيناً بالصور الكثيرة التي تزدهم بها هذه الابيات وقد يكون من أبرز الخصائص ايضاً غناء النص بعنصر الحركة إذ أن هذا التشخيص أضفى على النص سمات الحياة التي سرت الى عناصر الطبيعة من المرأة كما يمكن ان نلاحظ أن هناك تناقضاً بين جزئيات الوصف حين نعت رأس الشجرة بالشمط فهذه الصورة مغايرة لسائر صور الابيات لأنها تعبر عن المشيب وبذلك أساء الى ملامح تلك الفتاة الجميلة وهذا يدل على ان ابن خفاجة يعني بالوصف الجزئي وبالصورة المستقلة في البيت من دون مراعاة الانسجام بين أجزاء الموضوع الذي يقول فيه .

أما ابرز السمات المميزة لابن خفاجة في ادائه الفني :

١- ايثار التصوير وابتعاده عن المباشرة في الوصف غير ان الصور قلما اتسمت لدية بالطرفة والإبداع فالأفاعي لدية كالشعور والنوار كالنجوم والندى كاللؤلؤ والشمس كالذهب والماء كالفضة فهو بذلك لايبتعد عن مألوف الشعر الاندلسي وان كان أكثر سعياً في الاعتماد على عنصر التصوير إلا انه لم يرق الى الفنية العالية .

٢- يغلب على وصف ابن خفاجة التلوين الحسي دون ان يتعداه الى التوغل الى حنايا النفس والشعور إلا اذا استثنينا من ذلك قصيدته التي يصف بها الجبال فأن سائر اشعاره لا

امه البهيجة التي - ولعل البهجة والمرح من أبرز ملامح الوصف المميزة في شعر ابن خفاجة إذ قلما نجد الطبيعة عنده قاتمة عابسة وقد يعزى ذلك الى استواء حياة الشاعر فالطبيعة لديه ضاحكة أبداً.

وتبعاً لذلك نما في نفس هذا الشاعر حسه في الطبيعة فأحبها ووجد الراحة في أحضانها فأقبل عليها يتغنى بها ويصف جميع مظاهرها فوصف الطبيعة الصامتة برياضيتها وأزهارها وأنهارها

وجبالها ووصف الطبيعة الحية كالفرس والذئب وبعض الطيور.

المصادر والمراجع :

- الادب الاندلسي : د. منجد مصطفى بهجت ، دار الكتب والوثائق - الموصل ، ١٩٨٦ .
- الادب الاندلسي : د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين - بيروت ، ١٩٨٨ .
- تاريخ الاندلس : د. عبد الرحمن علي الحجي ، دار القلم - دمشق ، ١٩٩٠ .
- دواوين الشعراء الأندلسيين :
 - ديوان ابن زيدون .
 - ديوان الاعمى التطيلي .
 - ديوان ابن اللبانة .
 - ديوان المعتمد بن عباد .
 - ديوان ابن الجنان الانصاري .
 - ديوان ابن خفاجة .
 - ديوان ابي البقاء الرندي .
 - ديوان ابن دراج القسطلي .
 - ديوان ابن عمار الاندلسي .
- كتب الأدب الاندلسي ومختاراته :
 - مطمح الانفس ، لابن خاقان .
 - قلائد العقيان ، لابن خاقان .
 - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام .
 - الاحاطة في اخبار غرناطة ، للسان بن الدين الخطيب .
 - نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، للمقري التلمساني .